الأدب الشفاهي الأمازيغي: دراسة سيميو-إيكولوجية الحكاية بالحوز نموذجا

الباحثة للا مليكة بوطالب
طالبة باحثة، مختبر اللغة والمجتمع، جامعة ابن طفيل القنيطرة
تحت إشراف: الأستاذ عبد العزيز الراشدي، كلية اللغات والآداب والفنون، ابن طفيل، القنيطرة
المغرب

ملخص:

يعد الأدب الشفوي الأمازيغي في منطقة الحوز أحد أبرز أشكال التعبير الثقافي التي تنقل القيم الاجتماعية والتقاليد المرتبطة بالبيئة. تتجاوز الحكايات الشعبية في هذه المنطقة كونها مجرد سرديات تقليدية، حيث تمثل وسيلة لفهم البيئة الطبيعية والأنظمة البيئية التي يعتمد عليها المجتمع المحلي. تهدف هذه الدراسة إلى تقديم مقاربة سيميو-إيكولوجية للأدب الشفوي الأمازيغي في الحوز من خلال تحليل الرموز والعناصر البيئية في الحكايات الشعبية، مثل الأرض والماء والنباتات والحيوانات، ودورها في تشكيل الوعي البيئي. تعتمد الدراسة على منهجية تحليل نوعي باستخدام أدوات السيميوطيقا والإيكولوجيا الثقافية، بهدف تفكيك مفاهيم الاستدامة البيئية وإدارة الموارد الطبيعية في الحكايات، مثل نظام "أكدال" و"تيويزي". تظهر النتائج أن الحكايات الشعبية الأمازيغية ليست فقط للتسلية، بل هي وسيلة أساسية لنقل المعارف البيئية وتعزيز الفهم العميق لعلاقة المجتمع بالبيئة، مما يساهم في حماية التوازن البيئي واستدامة الموارد الطبيعية .

الكلمات المفتاح: الأدب الشفوي الأمازيغي، مقاربة سيميو-إيكولوجية، البيئة، الحكايات الشعبية.

Résumé:

Cet article analyse la littérature orale amazighe de la région de Haouz sous une approche sémiotico-écologique, en mettant en lumière la façon dont les contes populaires intègrent des éléments naturels comme la terre, l'eau, les plantes et les animaux. Ces symboles ne sont pas seulement des représentations culturelles, mais aussi des vecteurs de transmission de pratiques écologiques et de gestion durable des ressources naturelles. L'étude s'intéresse à la manière dont ces récits contribuent à la formation de la conscience écologique, en valorisant des concepts comme le système "Agdal" (gestion des ressources naturelles) et "Tiwizi" (coopération communautaire). À travers une analyse qualitative basée sur la sémiotique et l'écologie culturelle, l'article montre que ces contes vont au-delà du simple divertissement. Ils constituent un moyen de préserver et de transmettre des savoirs environnementaux de génération en génération. Cette transmission permet de maintenir un équilibre écologique tout en répondant aux besoins sociaux et économiques des communautés. Ainsi, la littérature orale amazighe, loin d'être une simple tradition, joue un rôle crucial dans la durabilité écologique des sociétés locales.

Mots-clés: littérature orale amazighe, approche socio-écologique sémiotique, environnement, contes populaires.

مقدمة

يُعد الأدب الشفوي الأمازيغي من أهم مكونات التراث الثقافي لشعوب الأمازيغ في شمال إفريقيا، حيث يشكل جسرًا بين الأجيال لنقل القيم الاجتماعية والمعارف البيئية والمهارات الحياتية. يشمل هذا الأدب مجموعة متنوعة من الحكايات الشعبية، الأشعار، الأمثال، والأغاني التي تمثل مرآة للهوية الثقافية للأمازيغ وتُعبّر عن تفاعلهم العميق مع البيئة الطبيعية. تتجاوز الحكايات الأمازيغية كونها وسيلة للترفيه أو سرد القصص؛ إذ تعتبر قناة حيوية لحفظ معارف تقليدية ترتبط بالطبيعة، وأسس الحياة اليومية، وأساليب التفاعل مع المحيط.

في هذا السياق، يتسم الأدب الشفوي الأمازيغي في منطقة الحوز بأهمية استثنائية، حيث لا تقتصر الحكايات على تعزيز القيم مثل التضامن والشجاعة، بل تتضمن أيضًا مفاهيم تتعلق بالاستدامة البيئية وإدارة الموارد الطبيعية. من خلال التحليل السيميو-إيكولوجي، يمكن فهم كيفية دمج المعرفة التقليدية حول البيئة في هذه الحكايات، مما يسهم في نقل المعرفة البيئية عبر الأجيال. تُظهر الحكايات الشعبية في هذه المنطقة العلاقة المتينة بين الإنسان وبيئته، مما يبرز دور الأدب الشفوي في تعزيز الوعي البيئي والحفاظ على التوازن البيئي.

يهدف هذا المقال إلى دراسة هذه الحكايات الشعبية الأمازيغية باستخدام مقاربة سيميو-إيكولوجية، من خلال تحليل الرموز والعناصر البيئية المتضمنة فيها، بهدف فهم دور الأدب الشفوي في تعزيز الوعي البيئي والمحافظة على الثقافة الأمازيغية في ظل التغيرات الاجتماعية المعاصرة.

تحديد الموضوع :

نتوجه في هذه الدراسة إلى تحليل الأدب الشفوي الأمازيغي في منطقة الحوز، التي تُعد من المناطق الغنية ثقافيًا وبيئيًا في شمال في إطار هذه الدراسة، اعتمدنا المقاربة السيميو-إيكولوجية كأداة منهجية رئيسية لفهم العلاقة التفاعلية بين الرموز الثقافية الأمازيغية والعناصر البيئية في الحكايات الشعبية. ونهدف من خلال هذه المقاربة إلى تسليط الضوء على كيفية تأثير البيئة الطبيعية على تشكيل معاني ودلالات الحكايات الشعبية، وكيف يعكس النص الشفوي التفاعل المستمر بين الإنسان وبيئته، كما نسعى إلى إبراز الدور للأدب الشفوي الأمازيغي كوسيلة لنقل المعارف البيئية والمحافظة على الثقافة المحلية في مواجهة التغيرات المعاصرة.

الإشكالية :

تتمثل إشكالية هذه الدراسة في محاولة استكشاف التفاعل المعقد بين الرموز الثقافية والبيئة في الأدب الشفوي الأمازيغي، مع التركيز على منطقة الحوز . كيف تؤثر البيئة الطبيعية في تشكيل الرموز الثقافية الأمازيغية وتوجيه دلالاتها؟ وما هو دور البيئة في بناء النصوص الشفوية التي تُروى في هذه المنطقة؟ في هذا السياق، نسعى إلى فهم كيفية تأثير العوامل البيئية على بنية الحكايات الشعبية، وكيف يعكس الأدب الشفوي في الحوز التفاعل المستمر بين الإنسان وبيئته. تهدف الدراسة إلى تحليل العلاقة الديناميكية بين الرموز الثقافية والطبيعة، وتحديد كيفية انعكاس هذه العلاقة في تجليات الحكايات الشعبية ودورها في نقل المعارف البيئية والاجتماعية عبر الأجيال.

الأهداف:

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف التالية:

1. الكشف عن العلاقة التفاعلية بين الأدب الشفوي والبيئة الطبيعية في منطقة الحوز من خلال تطبيق المقاربة السيميو-إيكولوجية، بهدف فهم كيفية تأثير العناصر البيئية على الرموز الثقافية المستمدة من البيئة في الحكايات الشعبية.
2. تحليل الرموز والدلالات المستمدة من البيئة الطبيعية في الحكايات الأمازيغية، مع التركيز على كيفية تأثير هذه الرموز في بناء النصوص والشخصيات، وتحديد كيفية تشكيل البيئة لأساليب السرد ومعاني الحكايات الشعبية في المنطقة.
3. إبراز الدور الثقافي والهوياتي للأدب الشفوي في تعزيز الهوية الأمازيغية، من خلال تحليل الحكايات الشعبية التي تمثل الذاكرة الجماعية وتساهم في ترسيخ الانتماء الجماعي وتفاعل الأفراد مع بيئتهم الطبيعية في السياق الثقافي المحلي.

1. الإطار النظري والمنهجي

1.1 . تعريف الأدب الشفوي الأمازيغي

يعد الأدب الشفوي الأمازيغي مكونًا محوريًا في بناء الهوية الثقافية والجماعية للشعب الأمازيغي، حيث يعكس هذا الأدب من خلال أشكاله المختلفة، مثل الحكايات الشعبية والأمثال، العلاقات الاجتماعية والروحية للأفراد في المجتمع الأمازيغي. هذا الأدب لا يقتصر على نقل القيم الاجتماعية وحسب، بل يعد أيضًا أداة حيوية لفهم العالم من خلال تصورات ثقافية ودينية تعكس تفاعل الأفراد مع محيطهم الطبيعي. وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار الشعب "مجموعة من الأفراد ينتمون إلى طبقات وفئات اجتماعية متنوعة، سواء إثنية، مهنية، أو دينية، يتحدون من خلال عناصر ثقافية مشتركة مثل اللغة والعادات والتقاليد والمشاعر والاهتمامات، مما يساهم في تكوين هوية جماعية متماسكة. كما يتشاركون في تراث ثقافي متجذر يعملون على الحفاظ عليه ونقله عبر الأجيال"[1]، مما يضمن استمراريته وتطوره ضمن سياقات اجتماعية وبيئية متغيرة، باعتباره الواقي الاجتماعي الذي يحمل الثقافة بصفة أساسية، يشكل وحدة اجتماعية ذات تراث مشترك، يتسم بوحدة اللغة والعادات والتقاليد والمشاعر والاهتمامات. هذه الخصائص تساهم في تعزيز الترابط بين الأفراد من مختلف الفئات الاجتماعية، مما يضمن الاستمرارية الثقافية عبر الأجيال.

يتناغم هذا الترابط الثقافي مع مفهوم "الشعب" الذي يطرحه "إريكسون"، حيث يُعتبر جماعة ذات "شعور خاص بالتعاطف" يرتبط بها أفرادها عبر "خلفية تاريخية مشتركة"، ويُنظر إلى الأدب الشفوي الأمازيغي باعتباره تجسيدًا لهذا التعاطف الروحي الذي يتعدى كونه مجرد ممارسة اجتماعية، كما يؤكد "وايس" أن الشعب هو "نوع من السلوك الذي يساهم فيه كل فرد بنصيب"، وأن هذا السلوك يتشكل من "موقف روحي يحدده التراث الثقافي والبيئة الاجتماعية"، مما يبرز التأثير المتبادل بين الثقافة والبيئة في بناء هوية الأفراد، بهذا المعنى، يعد الأدب الشفوي الأمازيغي تجسيدًا حيويًا للسلوك الجماعي والروحي الذي يعبر عن ملامح حياة غنية بالقيم الاجتماعية.

في هذا السياق، يتسم الأدب الشفوي الأمازيغي بمرونة كبيرة تتيح له التكيف مع التغيرات البيئية والاجتماعية المستمرة، فهو ليس مجرد وسيلة للترفيه أو سرد القصص، بل هو قناة أساسية لنقل الحكمة والمعرفة المرتبطة بالبيئة الطبيعية، يعزز هذا الأدب الوعي البيئي من خلال التصورات الاجتماعية التي تنظم العلاقة بين الإنسان وبيئته. الحكايات الشعبية الأمازيغية، على سبيل المثال، تقدم معارف تتعلق بمفاهيم الاستدامة وإدارة الموارد الطبيعية، حيث توضح كيفية الحفاظ على التوازن البيئي من خلال أساليب حياة مستدامة، لذلك، لا تقتصر هذه النصوص على نقل تجارب الحياة اليومية، بل تساهم في تقديم حلول ثقافية عملية للتحديات البيئية والاجتماعية، مما يجعلها أداة حيوية للحفاظ على التوازن بين الإنسان والطبيعة في المجتمعات الأمازيغية.

1.2 الحكاية الأمازيغية وعلاقتها بالبيئة

تُعتبر الحكاية الأمازيغية جزءًا جوهريًا من التراث الثقافي الأمازيغي، حيث تلعب دورًا محوريًا في نقل المعارف البيئية والقدرة على التكيف مع التحديات الطبيعية. تعكس هذه الحكايات العلاقة المتجذرة بين المجتمعات الأمازيغية وبيئاتها المحلية، من خلال تصويرها للعديد من عناصر الطبيعة كالجبال، الأودية، الغابات، والموارد المائية، وتوظيفها كرموز حيوية ترتبط بالقيم البيئية والاجتماعية. في الحكايات، تُعد البيئة أكثر من مجرد خلفية سردية؛ فهي شريك أساسي في تشكيل النصوص ورسم معالم الشخصيات والأحداث.

تظهر الحكايات الشعبية الأمازيغية اهتمامًا خاصًا بالعلاقة التبادلية بين الإنسان والطبيعة، حيث تتجلى الوعي البيئي في تفاصيل دقيقة، مثل طرق استثمار الموارد الطبيعية والمحافظة عليها، أو تفسير الظواهر الطبيعية من خلال مرجعيات ثقافية ترتبط بالحياة اليومية. على سبيل المثال، تتناول العديد من الحكايات الأساطير المتعلقة بالجبال والوديان التي تُعتبر مقدسة أو مسكونة بالأرواح، مما يعكس مبدأ الاحترام العميق للطبيعة. وتُظهر بعض الحكايات كيفية استخدام الإنسان الأمازيغي للموارد الطبيعية بطرق مستدامة، من خلال تقنيات وتقويمات بيئية تتناسب مع التوازن الطبيعي، وهو ما يتجلى في نظم الإدارة البيئية المحلية مثل "أكدال"[2] (النظام التقليدي لإدارة المراعي) و"تيويزي" (التعاون الجماعي في الأنشطة الزراعية).

تعد الحكايات الأمازيغية أداة أساسية لترسيخ مفهوم الاستدامة البيئية عبر الأجيال، حيث يُستخدم السرد الشعبي لتعليم الأفراد كيفية التفاعل مع البيئة المحيطة بهم على نحو حكيم ومستدام. في هذا السياق، تساهم الحكايات في نقل معارف تقليدية حول الزراعة

المستدامة، والمياه، والطبيعة البرية، إلى جانب تنظيم العلاقة بين الإنسان والبيئة في إطار من التعاون الاجتماعي والتضامن. ولذلك، هذه الحكايات بمثابة تجسيد حي للقيم البيئية، مثل الاحترام والتوازن، التي تُعد جزءًا لا يتجزأ من الهوية الثقافية الأمازيغية، وتُسهم بشكل عميق في تكوين الوعي البيئي الذي يساهم في مواجهة التحديات البيئية المعاصرة .

من خلال هذا التفاعل بين الأدب الشفوي والبيئة، تتضح كيفية تشكل النصوص الشعبية الأمازيغية كوسيلة لنقل المعارف الإيكولوجية من جيل إلى آخر، مما يعزز فهم الإنسان الأمازيغي لطبيعة محيطه ويُمكنه من الاستمرار في التكيف مع تحديات البيئة بشكل مستدام.

1.3. المقاربة السيميو–إيكولوجية:

يشترك المنهجان السيميولوجي والإيكولوجي في الاهتمام بدراسة العلاقة بين النص الأدبي والعناصر الخارجية التي تؤثر على إنتاج المعاني، غير أن كلاً منهما يتناول هذه العلاقة من منظور مغاير، إذ يركز المنهج السيميولوجي على العلامات والإشارات داخل النصوص الأدبية لفهم كيفية إنتاج المعاني وتفسيرها ضمن سياقات ثقافية واجتماعية، ويستند إلى أعمال فرديناند دي سوسير F. de Saussure[3]، الذي أسس لتحليل العلاقة بين الدال والمدلول، وقد طوّر هذه المقاربة منظّرون مثل رولان بارت وأ. ج. غريماس A.J. Greimas[4] من خلال تحليل الأنظمة الرمزية والثقافية التي تحكم النصوص الأدبية، حيث يتم تفكيك النصوص لفهم بنيتها العميقة وكيفية تأثيرها على المتلقي من خلال اللغة والرموز.

أما المنهج الإيكولوجي فيتطرق إلى العلاقة بين الأدب والبيئة المادية، مستندًا إلى الأفكار التي طرحها وليام روكرت W. Rueckert[5] حول ربط الأدب بالإيكولوجيا، و يركز النقد الإيكولوجي على أن النصوص الأدبية تتفاعل مع البيئة المحيطة بها الترابط الإيكولوجي بين الكائنات والطبيعة، وتعتبر هذه المقاربة الأدب وسيلة للتعبير عن الوعي البيئي، وتحليل تمثيل الطبيعة والموارد الطبيعية في النصوص الأدبية، إضافة إلى دراسة تأثير البيئة على الشخصيات والسرد.

تعد المقاربة السيميو–إيكولوجية إطارًا نظريًا يجمع بين السيميولوجيا (علم الرموز) والإيكولوجيا (علم البيئة) بهدف دراسة العلاقة بين النصوص الأدبية والسياق البيئي الذي تنبثق منه. وفقًا لهذه المقاربة، يُفهم الأدب الشفوي ليس فقط كنظام رمزي، بل كجزء من النظم البيئية والثقافية التي يتفاعل معها الإنسان. تتجلى أهمية هذه المقاربة في قدرتها على تحليل كيفية انعكاس البيئة الطبيعية والاجتماعية على الأدب الشفوي، إذ يتضمن هذا الأدب عناصر رمزية مرتبطة بالطبيعة المحلية، مثل الجبال، والأنهار، والحيوانات، والظروف المناخية، التي تشكل مكونات سردية في النصوص الشفوية.

تسهم هذه المقاربة في فتح آفاق جديدة لفهم الحكايات الشعبية من خلال التركيز على التفاعل بين الإنسان والطبيعة، حيث يمكن قراءة النصوص كأنظمة حية تتأثر بالمحيط البيئي وتؤثر فيه. على سبيل المثال، يمكن أن تحمل رمزية الشخصيات وعناصر الحبكة في الحكايات الشفوية الأمازيغية معاني مرتبطة بالتكيف مع البيئة المحلية أو استغلال الموارد الطبيعية.

2. السياق البيئي والثقافي للحوز

في إطار البحث العلمي حول السياق البيئي والثقافي لمنطقة الحوز، يشكل فهم المعطيات الجغرافية والبيئية عاملاً محورياً لتحليل أنماط التفاعل بين الإنسان وبيئته المحلية، حيث يتميز إقليم الحوز بخصائص جغرافية تتضمن جبال الأطلس، والوديان، والسهول، مما يخلق نظامًا بيئيًا متنوعًا يؤثر مباشرةً على طرق العيش والتكيفات الثقافية لسكانه، لتنعكس هذه الخصائص على الأنشطة الاقتصادية المحلية، كالرعي والزراعة، حيث يعتمد المجتمع المحلي على الموارد الطبيعية المتاحة، ما يؤدي إلى تبلور مجموعة من القيم الاجتماعية المتعلقة بالاستدامة البيئية والمحافظة على الموارد.

علاوة على ذلك، فإن السياق الثقافي في الحوز يتميز بتقاليد وأعراف تواكب الظروف البيئية، حيث أسهمت تلك التقاليد في تعزيز آليات اجتماعية تتسم بالمرونة والتكيف مع التحولات البيئية، يعزز هذا الترابط بين البيئة والثقافة فهماً أعمق لأهمية الموارد الطبيعية، كالمياه والأراضي الزراعية، في تشكيل ثقافة مشتركة تسعى للحفاظ على التوازن البيئي.

يقع إقليم الحوز جنوب غربي المغرب، ويعد جزءًا من جهة مراكش–آسفي، ويبعد حوالي 40 كيلومترًا عن مدينة مراكش. يحده من الغرب إقليم شيشاوة، ومن الجنوب إقليم تارودانت، ومن الشرق إقليم ورزازات، ومن الشمال إقليم قلعة السراغنة. تبلغ مساحته

حوالي 6200 كيلومتر مربع، ويضم ثمانية وثلاثون جماعة قروية وواحدة حضرية حسب معطيات مديرية الإحصاء لسنة 2009[6]، ويغلب عليها الطابع الجبلي والقروي. من أبرز مدنه ودواويره: أيت أورير، ومولاي إبراهيم، وأسني، وأمزميز، وتحناوت، وتمصلوحت، وتمكروت، وتيغدوين، وتيدلي، وأغمات، وثلاث ن ياعقوب (تينمل)... يشتهر الإقليم بوجود جبل توبقال، الذي يعد أعلى قمة جبلية في المغرب، بارتفاع 4165 مترًا فوق سطح البحر، وتغطي الجبال تقريبًا ثلاثة أرباع مساحته.

الخريطة 1: خريطة لبعض دواوير ومدن إقليم الحوز

المصدر: www.researchgate.net/figure/Map-delimiting-Al-Haouz-province-in-Morocco

تتميز منطقة الحوز بتنوعها البيئي والجغرافي الذي ينعكس بوضوح على طريقة حياة سكانها، ويشكل عنصرًا محوريًا في تشكيل الأدب الشفوي الأمازيغي الذي يُمارس في هذه المنطقة. تمتاز الحوز بتضاريس جبلية، ووديان خصبة، وأراضٍ قاحلة، وهي بيئة ذات ارتباط وثيق بين الإنسان والطبيعة، حيث تؤثر هذه الخصائص البيئية على أنماط المعيشة، والتنظيم الاجتماعي، والأنشطة الاقتصادية. وتُعد الحكايات الشعبية الأمازيغية مرآة حقيقية لهذا التفاعل المستمر بين الإنسان وبيئته، حيث تتضمن رموزًا بيئية تنقل قيمًا متعلقة بالاحترام والتوازن البيئي، مثل تصوير الجبال كأماكن مقدسة أو رمزية القوة، والوديان كمصادر للحياة، والمياه كعنصر أساسي في الحفاظ على استدامة الحياة.

لا يُقتصر تأثير البيئة في الحكايات الشعبية على الطابع الطبيعي فقط، بل يتعدى ذلك ليشمل منظومة القيم الاجتماعية والثقافية التي تتأصل في هذا السياق البيئي. الحكايات الأمازيغية في الحوز تُجسد مفاهيم مثل التعاون الاجتماعي، التضامن، والعدالة، التي تشكل ركائز أساسية في تشكيل الهوية الثقافية للمجتمع الأمازيغي. كما تنقل هذه الحكايات قيمًا تربوية مرتبطة بحماية الموارد الطبيعية، وترسخ مفاهيم الحياة المستدامة، مما يجعل الأدب الشفوي وسيلةً فعالة للحفاظ على هذه المعارف البيئية التي توارثها الأجيال.

إلى جانب هذا، يُعتبر الأدب الشفوي الأمازيغي في الحوز عاملًا رئيسيًا في تعزيز الهوية الثقافية والتاريخية للمجتمع الأمازيغي. عبر السرد القصصي، يتم نقل الذاكرة الجماعية والتجارب الإنسانية من جيل إلى آخر، مما يساهم في ترسيخ الروابط بين الأفراد والمجتمع ككل، ويعزز شعور الانتماء إلى هوية مشتركة. وفي مواجهة التغيرات البيئية والاجتماعية المعاصرة، يظل الأدب الشفوي مرجعًا ثقافيًا حيويًا يساهم في الحفاظ على قيم الأمازيغ وتعزيزها في سياق مستمر من التكيف مع البيئة المحيطة.

1.2. العلاقة بين الأدب الشفوي والبيئة المحلية في منطقة الحوز

تُعد منطقة الحوز نموذجًا متميزًا لدراسة كيفية تداخل الروايات الشفوية مع البيئة المحلية، إذ تعكس الحكايات الشعبية تفاصيل غنية عن العلاقة الوثيقة بين الإنسان والطبيعة. يتجلى هذا التفاعل في كيفية تعايش المجتمعات الأمازيغية مع العوامل البيئية المتنوعة، مثل التضاريس الجبلية والأنهار والمناخ، مما يسهم في فهم أعمق للأدب الشفوي الأمازيغي. بحيث هذا الإقليم "ترابا مميزا بغنى موروثه التاريخي والثقافي والحضاري، وبتعدد موارده (الطبيعية والترابية والتراثية) التي شكلت، ولاتزال، أهم عوامل الاستقرار"[7]. تعد منطقة الحوز واحدة من أبرز المناطق التي تجسد التناغم الفريد بين الإنسان وبيئته الطبيعية، مما ينعكس بشكل مباشر على الموروث الثقافي والتاريخي للمنطقة. يشكل التاريخ الطويل والمعقد الذي عاشته هذه المنطقة، من خلال تجاربها القتالية والتجارية والفلاحية، جزءًا أساسيًا من هوية مجتمعها، حيث لا تقتصر هذه الهوية على تفاصيل التاريخ السياسي والاجتماعي، بل تتجسد أيضًا في المعمار المحلي، العادات، والتقاليد التي نشأت عبر العصور. وعلى سبيل المثال، تعتبر القرى التقليدية في الحوز، بتخطيطها العمراني المتناغم مع الجغرافيا المحيطة، نموذجًا للتكيف البيئي الفعّال الذي يعكس تفاعلات الإنسان مع محيطه.

إن الموروث الثقافي في الحوز يتجاوز حدود الفنون والحرف اليدوية ليشمل الموسيقى، الرقص، والممارسات الأدبية المحلية التي تحتفظ بها الذاكرة الشعبية. هذه الممارسات لا تقتصر على كونها مظاهر فنية، بل تعتبر محركات حيوية تعزز من ترابط المجتمع الأمازيغي وتحفظ ذاكرته الجماعية. تتداخل هذه الفنون مع البيئة في أشكال متعددة؛ على سبيل المثال، نجد أن الموسيقى الأمازيغية التقليدية في الحوز غالبًا ما تستخدم الآلات الموسيقية التي يتم تصنيعها محليًا من مواد طبيعية مثل الخشب والجلد، مما يعكس العلاقة الوثيقة بين البيئة والتراث الثقافي.

أما فيما يخص الموارد الطبيعية، فهي لا تشكل مجرد عنصر حياتي بل جزءًا لا يتجزأ من ثقافة الحوز. المياه، على سبيل المثال، تعد عنصرًا أساسيًا في تطور النشاط الزراعي الذي يعد ا لركيزة الاقتصادية لسكان المنطقة. وتشكل الأنهار والعيون المائية في الحوز شرايين حياة ضرورية، وهو ما يظهر في الحكايات الشعبية التي تمجد هذه الموارد الطبيعية وتربطها بالقيم الاجتماعية التي تشجع على حماية البيئة.

في هذا السياق، تُعتبر الحكايات الشعبية الأمازيغية في الحوز مرآةً دقيقة لوعي المجتمع وتفاعله مع بيئته الطبيعية. تتنوع هذه الحكايات بين سرديات موجهة للأطفال تتضمن دروسًا بيئية مثل كيفية احترام الطيور والحيوانات، وأخرى تروي تجارب يومية للمجتمعات الزراعية والرعوية، وكيفية التعامل مع التحديات البيئية مثل الجفاف أو الفيضانات. هذه الحكايات تُمثل أيضًا نموذجًا لتعليم الأجيال الجديدة حول أهمية التوازن بين الإنسان والطبيعة، وهي قادرة على نقل تجارب الماضي إلى الحاضر.

الأدب الشفوي في منطقة الحوز لا يقتصر على كونه وسيلة لنقل القيم، بل يشكل أداة فعّالة لتشكيل الوعي البيئي لدى المجتمع. ففي الحكايات التي تدور حول العلاقة بين الإنسان والحيوان، يتجلى تفاعل البشر مع بيئتهم بأسلوب رمزي، يعكس احترام الطبيعة ويدعو للحفاظ عليها. وهذا التفاعل بين الأدب والبيئة ليس مجرد تفاعل ثقافي، بل هو أداة حيوية للحفاظ على التراث البيئي الذي يعزز من قدرة المجتمعات المحلية على مواجهة التحديات البيئية المتزايدة، ويعيد التأكيد على أهمية الحفاظ على الموروث البيئي باعتباره جزءًا لا يتجزأ من الهوية الثقافية لمنطقة الحوز.

3. الإيكولوجيا السردية في السياق الأمازيغي

تدعو الإيكولوجيا، كما وضع أسسها غريغوري باتسون G. Batson[8]، إلى إعادة التفكير في السرديات باعتبارها أنظمة من بين الكائنات وبيئاتها. عند تطبيق هذا المفهوم على الحكايات الأمازيغية، نجد أن البيئة الطبيعية لمنطقة الحوز (الجبال، الأنهار، الغابات...) ليست مجرد خلفية للأحداث، بل هي عنصر أساسي يساهم في تطور القصة. وعلى عكس النظرة التي ترى أن المكان هو مجرد إطار جامد، فإن البيئة في الحكاية الأمازيغية تؤثر بشكل فعال على تطور الأحداث، مما يشكل "إيكولوجيا سردية" حيث تتفاعل الشخصيات وبيئاتها باستمرار.

على سبيل المثال، في حكاية أمازيغية نموذجية من الحوز، لا تكون الغابة مجرد عائق طبيعي يعبره البطل، بل تشكل فضاءً إختباريًا يمر فيه البطل بتجارب، حيث تساهم كل عنصر طبيعي – من الأشجار والحجارة وحتى الحيوانات – في تحول البطل. هذا التفاعل المستمر بين الشخصية وبيئتها يعكس مفهوم باتسون بأن كل فعل هو جزء من السياق ولا يمكن فصله عنه، البطل الأمازيغي لا يتحرك في بيئة سابقة التكوين، بل يساهم في خلقها من خلال أفعاله، مما يؤدي إلى عالم في تطور دائم.

3.1. العلاقة بين الشخصيات والأشياء: التبادل السردي

في التحليل السيميائي لفيلاديمير بروب V. Propp[9]، نجد أن الشخصيات في الحكايات العجيبة غالبًا ما تكون مقيدة بوظائف سردية محددة، ويمكن استبدالها بأشياء أو عناصر غير بشرية تقوم بأدوار مماثلة، وهذه الملاحظة تنطبق أيضًا على الحكايات الأمازيغية، حيث نجد أن الشخصيات البشرية غالبًا ما تكون مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بأشياء سحرية أو عناصر طبيعية. على سبيل المثال، يمكن أن تعمل التمائم، أو الحجر المقدس، أو الشجرة الناطقة والجدع السحري بشكل مشابه لدور الشخصيات البشرية من خلال تقديم حلول للمشاكل التي يواجهها البطل أو مرافقة رحلته.

يكشف هذا التبادل الوظيفي عن الوحدة بين العناصر في الحكاية الأمازيغية، فالشخصيات والأشياء ليست جامدة أو ثابتة في هوياتها، بل تخضع لتحولات مستمرة تتيح لها تبادل أدوارها. هذه الظاهرة تسلط الضوء على رؤية للعالم حيث لا توجد حدود فاصلة بين البشر والطبيعة والماورائيات، بل تتفاعل جميعها في نظام إيكولوجي شامل.

3.2. الطبيعة كقوة فاعلة في الرمزيات السرد في الحكايات الأمازيغية

من الخصائص الإيكولوجية الأكثر وضوحًا في الحكاية الأمازيغية هي الاستمرارية بين العالم الطبيعي والعالم الرمزي. ففي العديد من الحكايات القادمة من الحوز، نجد أن الحدود بين هذين العالمين غير واضحة. فقد تصبح عين ماء ممرًا إلى عالم خفي، أو شجرة ملاذًا لروح خيّرة أو شريرة، أو أن تحتوي الجبال على مخلوقات أسطورية تتدخل لمساعدة أو عرقلة البطل. هذا الدمج بين الطبيعي والرمزي يعكس رؤية للعالم يكون فيها للطبيعة قدرة فاعلة، حيث تكون التحولات والظواهر جزءًا طبيعيًا من عملية السرد.

على سبيل المثال، في حكاية "لونجا والأمير"، يظهر تداخل العالمين الطبيعي والرمزي بشكل واضح من خلال رحلة البطل إلى السماء. في هذه الحكاية، يُعتبر الطائر العملاق أحد الرموز الطبيعية التي تحمل بعدًا رمزيًا في الوقت ذاته. عندما يلتقط الطائر البطل ويطير به إلى السماء، فإن هذا التحول لا يمثل مجرد انتقال في الفضاء، بل هو انتقال بين العوالم المختلفة، حيث يصبح الطائر، الذي هو جزء من البيئة الطبيعية، الوسيط بين الأرض والعالم السماوي. هذه الرحلة التي يقوم بها البطل ليست مجرد مغامرة في عالم خارجي، بل تمثل أيضًا رحلة من التحولات الروحية والوجودية. السماء، في هذه الحالة، تمثل عالمًا رمزيًا يشمل القوى الخفية التي تراقب وتوجه مصير البطل. فالعلاقة بين البطل والطائر، وكذلك بينه وبين السماء، تخلق تفاعلًا مستمرًا بين العوالم المادية وغير المرئية، حيث تؤثر البيئة الطبيعية (الطائر والسماء) بشكل مباشر على تطور الأحداث.

علاوة على ذلك، في هذه الحكاية، نجد أن البطلة "لونجا" تنكر ذاتها وتتخذ شكل حيوان للنجاة، مما يعكس تفاعلًا عميقًا بين والبعد الرمزي. هذا التحول إلى شكل الحيوان ليس مجرد تصرف يهدف إلى الهروب، بل هو أيضًا وسيلة للتواصل مع القوة الحيوانية في البيئة المحيطة بها، التي توفر لها الحماية والقدرة على التحول والهروب من الأعداء. إن تنكرها في صورة الحيوان يفتح المجال أمام تفاعل جديد مع عناصر الطبيعة التي تتيح لها النجاة، وهو تفاعل يمثل قدرة الطبيعة على تغيير شكل الكائنات البشرية لتتكيف مع التحديات. بهذا الشكل، يصبح الحيوان رمزًا للقدرة على التكيف والتأقلم مع القوى الطبيعية والرمزية التي تحيط بالشخصية.

هذه الاستمرارية بين العالمين الطبيعي والرمزي تؤكد على أن البيئة ليست مجرد خلفية للأحداث، بل هي عنصر فاعل يتداخل مع تطور الشخصية ويسهم في تشكيل مصيرها. الطائر العملاق والحيوانات في هذه الحكاية ليسا مجرد كائنات عابرة، بل هما قوى مؤثرة في تحديد مصير الأبطال، مما يبرز التكامل المستمر بين الطبيعة والعالم الرمزي في الحكاية الأمازيغية.

4. التحولات الإيكولوجية كرموز للتفاعل بين الإنسان والطبيعة:

في الحكايات الأمازيغية، تُظهر التحولات من إنسان إلى حيوان أو من شيء جامد إلى كائن حي مرونة إيكولوجية تُحيل إلى تحول ديناميكي بين الإنسان وبيئته، هذا التفاعل المستمر بين الكائنات والبيئة يعكس رؤية سيميو-إيكولوجية تجعل من العالم مكانًا مرنًا حيث الحدود بين الكائنات ليست ثابتة، بل هي قابلة للتغيير والتطور بناءً على الظروف البيئية والحكاية نفسها.

- **الأمير والطائر العملاق** :في حكاية "لونجا والأمير"[10]، الطائر العملاق ليس مجرد مخلوق طبيعي، بل هو كائن فاعل في السرد، البطل إلى عالم آخر، مما يعكس اندماجًا بين العوالم السحرية والطبيعية. يتم تفسير هذه الحكاية من منظور سيميو-إيكولوجي كرمز للتواصل بين الإنسان والعناصر الطبيعية المهيمنة في البيئة مثل الطيور، التي غالبًا ما تحمل رمزية القوة والتحرر. في هذا السياق، الطائر لا يعمل فقط كوسيلة نقل، بل هو تجسيد للقوة الطبيعية التي تتجاوز الحدود المادية، هذا التفاعل بين الطائر والبيئة هو تجسيد لعملية مستمرة من التغيير والتحول الذي يؤثر في مسار الحكاية وتطور الشخصيات.

4.1. التحولات الجسدية والرمزية:

- **لونجا وحيوان السلوقي**: تحول البطلة لونجا إلى حيوان سلوقي يعد تحولًا إيكولوجيًا واضحًا في النص، حيث يتيح لها التكيف مع بيئتها بطريقة مرنة، في المقاربة السيميو-إيكولوجية، يُنظر إلى هذا التحول كإشارة إلى الانسجام بين الإنسان والطبيعة. **فالسلوقي**، باعتباره حيوانًا يتسم بالذكاء والقدرة على التنقل السريع، يرمز إلى القدرة على التكيف مع تحديات البيئة من خلال تكيف جسدي ووجودي، هذا التحول لا يقتصر فقط على البُعد الفزيائي، بل يشير أيضًا إلى قدرة الإنسان على التواصل مع العناصر الطبيعية والتفاعل معها من خلال فهم الرموز المرتبطة بالطبيعة.
- **الجدع السحري في حكاية الحطاب**[11]: في هذه الحكاية، يصبح الجدع الناطق رمزًا للتحول الطبيعي الذي يعكس تفاعل الإنسان مع البيئة. فالجدع، الذي يبدو منذ الوهلة الأولى كعنصر جامد، يكتسب الحياة والقدرة على التوجيه، مما يعكس الوعي البيئي، حيث لا تُنظر الأشياء كمجرد عناصر ميتة، بل تُحمل برموز ودلالات تجعلها ذات دور في تكوين الأحداث. **الجدع** الناطق يمثل تفاعلًا بين الطبيعة والإنسان، حيث لا تقتصر البيئة على توفير الموارد بل تتفاعل مع الأفعال البشرية، مؤثرة ومتأثرة بها.
- **الطائر الذي يبيض ذهبًا** :في حكاية "الحطاب"[12]، يظهر الطائر كرمز للثروة الطبيعية التي تُمنح للإنسان عندما يعيش في تناغم مع البيئة، التحول الذي يقدمه الطائر في هذه الحكاية يُظهر علاقة الإنسان بالموارد الطبيعية. حيث يمكن اعتبار الطائر الذي **يبيض** ذهبًا رمزًا للطبيعة التي تحمل قوى لا تُعد ولا تحصى، ولكنها قد تكون موضع استغلال مفرط إذا لم يُحسن الإنسان التعامل معها. من خلال هذا الطائر، تبرز الرمزية السيميو-إيكولوجية للاستخدام المستدام والواعي للموارد، حيث يمكن للطبيعة أن تمنح الثروات، لكن تلك الثروات مشروطة بالتفاعل المسؤول والمستدام.

4.2. التفاعل المستمر بين الكائنات والبيئة:

في هذه النماذج من الحكايات الأمازيغية، يعكس كل فعل تحولي العلاقة بين الإنسان وبيئته على مستويات عدة: فالبيئة لا تشكل خلفية ثابتة للأحداث، بل هي كائن حي يتفاعل مع الشخصيات ويؤثر فيها. في المقاربة السيميو-إيكولوجية، يشير هذا إلى أن البيئة ليست مجرد إطار للسرد، بل هي جزء لا يتجزأ من تكوين الأحداث والشخصيات. حيث تتجسد العلاقات بين الإنسان والبيئة في رمزية تُعبّر عن أن كل عنصر طبيعي له قدرة على التفاعل مع الإنسان، سواء كان طائرًا، شجرة، أو حجرًا...

جدول 1: نموذج من التحولات البيئية في الحكايات الأمازيغية

الحدث أو العنصر المتحول	الرمزية أو التفاعل بين الشخصية والبيئة
لونجا تتنكر في شكل حيوان للهروب من الخطر	يرمز التحول إلى التكيف مع البيئة وصراع البقاء، والقدرة على التحرك بسرعة والتفاعل مع البيئة بطريقة مرنة، التحول إلى شكل حيوان يرمز إلى القوة الداخلية والتكيف مع المحيط المهدد.
البطل يُنقل إلى السماء بواسطة طائر عملاق	الطائر يرمز إلى القوة، والتحرر، والتنقل بين العوالم المادية والماورائية.

الطائر الذي يبيض ذهبًا	يرمز الطائر إلى الثروة الطبيعية والموارد غير المحدودة التي تقدمها الطبيعة للإنسان.
جدع شجرة يصبح ناطقًا ويوجه الحطاب	الجدع الناطق يرمز إلى القوة السحرية للطبيعة، وتحقيق التواصل بين الإنسان والعناصر الطبيعية.

المصدر: عمل شخصي

5. الحكاية الأمازيغية في الحوز: الخصائص والتحليل

5.1. الخصائص العامة للحكايات:

تتسم الحكايات الأمازيغية في منطقة الحوز بسمات مميزة ترتبط بالسياقات الاجتماعية والثقافية التي نشأت فيها، تعكس هذه تداخلًا بين الواقعي والمتخيل، مع التركيز على موضوعات رئيسية مثل الصراع بين الخير والشر، الحكمة والشجاعة، إلى جانب قيم التضامن والتكافل الاجتماعي. تتناول الحكايات موضوعات يومية ومعيشية، حيث غالبًا ما تكون الشخصيات مستوحاة من البيئة سواء من البشر أو الحيوانات، مما يعزز الانتماء إلى الطبيعة المحيطة ويدمجها كعنصر فعال في بناء الحكاية.

تشكل الأمهات والجدات محورًا أساسيًا في نقل هذه الحكايات، حيث يتم من خلالهن الحفاظ على الذاكرة الجماعية ونقل القيم والتقاليد من جيل إلى جيل. هذه الشخصيات لا تعمل فقط كوسيط روائي، بل تمثل أيضًا رموزًا للأمومة والقيادة المعرفية داخل المجتمع الأمازيغي. كما تبرز الرمزية البيئية بشكل كبير، حيث تلعب الجبال والمياه والعناصر الطبيعية الأخرى دورًا مركزيًا في السرد، ليس فقط كخلفية للأحداث ولكن كعناصر رمزية لها دلالات عميقة تؤثر على الشخصيات ومسارات الحكاية.

5.2. التحليل السيميو–إيكولوجي لحكاية "الحطاب والجدع السحري":

تعد حكاية "الحطاب والجدع السحري" نموذجًا غنيًا للتحليل السيميو–إيكولوجي، حيث يتداخل فيها البعد الرمزي للعناصر الطبيعية مع القيم الثقافية والاجتماعية. من خلال هذا التحليل، يمكن تحديد ثلاثة محاور رئيسية تسهم في بناء السرد: العلاقة بين الإنسان الرموز الثقافية المستمدة من البيئة المحلية، ودور العناصر الطبيعية في توجيه مصير الشخصيات.

أ– العلاقة بين الإنسان والطبيعة:

يمثل الجدع السحري رمزًا للطبيعة الحية القادرة على التفاعل مع الإنسان. في بداية القصة، يقتحم الحطاب الغابة من أجل كسب قوته، وهي ممارسة تشير إلى الاعتماد على الطبيعة كمصدر أساسي للحياة. يتمثل ذلك في قوله: "توجه إلى الغابة المجاورة لقريته"، حيث يعكس هذا الفعل الارتباط المباشر بالبيئة. ومع ذلك، فإن التفاعل بين الحطاب والجدع لا يتم على أساس السيطرة بل على التفاوض. عندما يرد عليه الجدع قائلًا: "ماذا تريد مني أيها الرجل، لا يجمعنا حق الدنيا ولا الآخرة"، يُظهر أن الطبيعة هنا ليست مجرد مصدر للاستغلال، بل كيانٌ يمتلك قدرة على الرد والتفاوض. هذه العلاقة البيئية تظهر كمبدأ أساسي في الفكر الأمازيغي التقليدي، يعتبر الإنسان جزءًا من المنظومة الطبيعية وليس كيانًا منفصلًا عنها.

ب– الرموز الثقافية المتأصلة في البيئة المحلية:

يمثل الرحى والصحن والقط رموزًا سحرية لها أدوار متعددة في تأمين احتياجات الحطاب وزوجته. عندما يكتشف الحطاب أن "الرحى تعطيهما من الخير الكثير"، فإن هذه الرموز ترتبط بمفاهيم محورية في الثقافة المحلية مثل الوفرة والضيافة والتدبير الاقتصادي. الرحى، على سبيل المثال، تمثل دورة الإنتاج الزراعي والاعتماد على الأرض، في حين أن الصحن يعكس فكرة الكرم والضيافة. عند استعمالهم للعبارة السحرية "أيتها الرحى قومي بما تقوم به الرحى"، يتجلى الربط بين الحرفية الطبيعية والاحتياجات الإنسانية. القط، الذي يتبرّز ذهبًا، يمكن أن يُفهم كرمزٍ للاستغلال الذكي للموارد، حيث يتطلب الأمر معرفةً دقيقةً بطريقة تفعيله للحصول على الفائدة المرجوة. هذه الرموز ليست فقط أدوات سحرية، بل هي تعبير عن العلاقة الثقافية بين الإنسان والبيئة، حيث يجب احترام الطبيعة وفهم رموزها لتحقيق الازدهار.

ت– دور العناصر الطبيعية في تشكيل السرد:

تلعب العناصر الطبيعية دورًا حاسمًا في توجيه مسار الأحداث في الحكاية. الجدع السحري يشكل نقطة الانطلاق لكل التحولات السردية التي يمر بها الحطاب وزوجته. عندما يقول الجدع: "ما تريد مني أيها الرجل؟ ألم أعطيك ما طلبت؟"، يعكس هذا مدى تأثيره على مصير الشخصيات. عبر الجدع، يُتاح للحطاب فرصة تجاوز حالة الفقر، ولكن سوء استغلاله للموارد (مثل القط والرحى والصحن) يؤدي إلى وقوعه في مشكلات متكررة. هنا تظهر الطبيعة كقوة تربوية، تعلم الإنسان القيم الأخلاقية اللازمة لإدارة الموارد بحكمة. التي تشمل استخدام القضبان لضرب العجوز ومن بعدها صاحب الحمام، عندما يقول الجدع: "قل: أعوذ بالله الرحمان الرحيم"، تعيد التأكيد على أن الطبيعة ليست مصدرًا للأخذ فقط، بل إنها تعاقب على الاستغلال المفرط أو الأناني للموارد.

من خلال المقاربة السيميو–إيكولوجية، تكشف هذه الحكاية عن تفاعل معقد بين الإنسان والطبيعة، حيث تشكل البيئة المحلية جزءًا لا يتجزأ من البناء الرمزي والثقافي للسرد. هذا التفاعل يتجاوز مفهوم السيطرة، ويبرز فكرة أن التوازن مع الطبيعة والقيم الثقافية المحيطة بها هو السبيل لتحقيق الازدهار والاستقرار، يظهر السرد أيضًا كيف يمكن للبيئة أن تكون مصدرًا للتعليم الأخلاقي والاقتصادي، عبر الرموز الثقافية التي تُستمد من الطبيعة وتوجه حياة الأفراد في المجتمع.

جدول 2: تكرار العناصر الطبيعية في حكاية "الحطاب والجدع الذهبي"

العنصر الطبيعي	التكرار
شجرة	11
جدع	13
ماء	9
سماء	5
غابة	4
هر	3
أرض	6
قمح	8
تربة	4
نار	4

المصدر: عمل شخصي

يمثل تكرار العناصر الطبيعية في حكاية "الحطاب وجدع الشجرة" انعكاسًا لتشابك الرموز البيئية مع البناء السردي والقيم الثقافية في المجتمع الأمازيغي. يُعد الجذع والشجرة عنصرين أساسيين، حيث يشير تكرارهما إلى العلاقة الوثيقة بين الإنسان وموارده الطبيعية، يحمله الجذع من رمزية للصمود، وما تمثله الشجرة من استمرار الحياة واستدامة الموارد. يأتي الماء بعد ذلك بتكرار ملحوظ، ليبرز دوره الحيوي كمصدر للطهارة والتجدد، كما يعكس بُعدًا نفسيًا يعزز تواصل الشخصيات مع القوى الطبيعية كعامل للتطهير الروحي وإعادة التوازن. أما السماء والأرض فيظهران كرمزين للأبعاد الكونية التي تُحكم حياة الإنسان، حيث يعبران عن ثنائية العطاء والاستقرار، مما يعكس نظرة المجتمع للطبيعة كوحدة متكاملة تنظم الحياة اليومية. يُعد تكرار النار بدوره إشارة للطاقة التحويلية والإرادة الإنسانية، إذ تعبر النار عن التحول والتجديد وتواجه التحديات، وهو ما يعكس دورها كرمز للقدرة على مواجهة المخاطر وتحقيق التغيير.

توضح هذه العناصر رمزية الطبيعة بوصفها بنية متكاملة تؤثر في سير الأحداث وتنسج أبعادًا ثقافية تتجلى عبر السرد الأمازيغي، مما يعزز فهمنا للعلاقة الوثيقة بين الطبيعة والأسطورة في صياغة هوية ثقافية تدعم تصورات المجتمع وأدواره الوظيفية.

تتضمن الحكايات الأمازيغية مجموعة متنوعة من العناصر الطبيعية التي تعكس العلاقة الوثيقة بين الإنسان والبيئة. تكتسب هذه العناصر دلالات سيميولوجية عميقة، حيث تمثل رموزًا تعكس القيم الثقافية والاجتماعية التي يتمسك بها المجتمع الأمازيغي. من الجبال التي ترمز إلى الثبات والاستقرار، إلى الأنهار التي تعبر عن الحياة والتجديد، تتشكل هذه العناصر لتجسد تجارب الأفراد وتفاعلهم مع الطبيعي. يمثل الجدول التالي ملخصًا لهذه العناصر الطبيعية ورمزيتها السيميولوجية، موضحًا كيف تساهم في تشكيل الهوية الثقافية وتعكس التقاليد والمعتقدات المتجذرة في الذاكرة الجماعية.

الجدول3: العناصر الطبيعية في الحكايات الأمازيغية ورمزيتها

العنصر الطبيعي	الوصف	الرمزية السيميولوجية	التحليل
الجبال	مرتفع طبيعي يتصف بالعلو والشموخ	رمز للثبات والعلو والتجذّر، والتحدي والسمو	الجبال تجسد قيم التحدي والصمود، وتمثل رابطًا عميقًا بين الشعب وبيئته. غالبًا ما ترتبط بحكايات وأجداد، مما يبرز دورها كحماة للهوية الثقافية. تثير ثباتها فكرة ثبات القيم والتقاليد في وجه التغيرات.
الأنهار	مجاري مائية طبيعية تتدفق عبر اليابسة، وتعتبر من أهم عناصر البيئة والحياة	رمز الخصوبة، والنمو، والحركة والتجدد	الأنهار تعتبر استعارًة للرحلة، سواء كانت جسدية أو عاطفية. تمثل الدورات الحياتية، موضحة كيف يجب على الشخصيات التكيف مع التحديات من أجل التطور. كموارد مائية، تغذي الأرض والمجتمعات، وتعزز التفاعلات الاجتماعية والتضامن.
الأشجار	نبات معمر يتميز بجذع خشبي سميك وأغصان تمتد إلى الأعلى، مما يمنحها شكلًا مهيبًا ومرتفعًا.	رمز للحياة، والأسرة، والحكمة الأبوية وإلى الرعاية والحماية	الأشجار، كرموز للحياة، تعكس الروابط الأسرية والثقافية. تمثل التجذر في التاريخ الجماعي، بينما تعكس أوراقها النمو والتطور. كما أنها توفر ملاذًا للكائنات الحية، مما يوضح التناغم بين الطبيعة والمجتمع.
الحيوانات	مثل الغزلان والخيول، ترمز إلى القوة والشجاعة	رمز للحرية والقدرة على التكيف مع البيئة	تمثل الحيوانات القوة والحرية، تعكس صفات مثيرة للإعجاب مثل الشجاعة والذكاء. يمكن أن توضح سلوكياتها في الحكايات دروسًا أخلاقية، حيث يتعين على الشخصيات التعلم من الطبيعة لتجاوز تحدياتها الخاصة.
الذئب	حيوان مفترس بري، يتمتع الذئب ببصر حاد وحاسة شم قوية تُمكنه من اكتشاف الفريسة من مسافات بعيدة.	كائن مخادع ومفترس، الخطر والتهديد. للخيانة والغدر، والحيلة والدهاء	في الحكايات الأمازيغية، يُصوَّر الذئب ككائن مخادع ومفترس، يرمز إلى الخطر والتهديد. يُعتبر رمزًا للخيانة والغدر، حيث يستخدم الحيلة لجذب ضحاياه. ومع ذلك، يُظهر الذئب أيضًا جوانب من القوة والشجاعة، معبرًا عن الغرائز الحيوانية الأساسية. يعكس الذئب تفاعل الإنسان مع قوى الطبيعة، مما يجعل منه شخصية معقدة تمثل الصراع بين الخير والشر، والأخلاق والعواطف.

السماء	هي فضاء شاسع يمتد فوق سطح الأرض، يتغير لونها مع تغير الوقت والطقس	رمزًا للسمو والروحانية. تمثل العلوّ والارتفاع، والحرية والانفتاح	تعتبر السماء مصدرًا للتغذية الروحية، حيث تقدم مساحات مفتوحة من التفكير والتأمل، مما يعزز العلاقات الاجتماعية والتضامن بين الشخصيات. كما تمثل الحدود التي يمكن أن يتجاوزها الأفراد في سعيهم نحو تحقيق الذات، وتعكس شعورهم بالانتماء إلى شيء أكبر.
الأرض	مصدرًا للموارد الطبيعية والغذاء، مما يسهم في نمو الحياة.	رمز للجذور والخصوبة، والهوية، والانتماء إلى المكان	الأرض رمز لهوية ثقافية واستمرارية. تمثل جذور المجتمعات ورابطها مع تاريخها وتراثها. تعتبر خصوبة الأرض ضرورية للبقاء، مما يعزز فكرة أن حماية البيئة تعني حماية الهوية الثقافية.
الماء	يشير إلى النقاء والصفاء أو الاضطراب والتقلب والغموض	رمز للحياة، والوفرة، والرابط الاجتماعي	الماء استعارة قوية للحياة والمجتمع. يمثل ليس فقط البقاء المادي، بل أيضًا الروابط الاجتماعية والثقافية. تسلط الحكايات التي تتضمن الماء الضوء على دورها المركزي في التماسك الاجتماعي والحفاظ على التقاليد.
النار	هي عملية احتراق تُنتج الحرارة والضوء	الشغف والغضب، والتحول والتغيير، الحماية والدفاع، الابداع والخلق، الاجتماع	تحمل دلالات متعددة تعكس الصراع بين القوى، وتقدم رموزًا للتحول والشفاء، وتعكس الديناميات الاجتماعية، مما يُعزز من فهمنا لتجارب الشخصيات وتفاعلاتها مع التحديات الحياتية.

المصدر: إنجاز شخصي

يُبرز الجدول ارتباط العناصر الطبيعية في الحكايات الأمازيغية بالعلاقة العميقة بين الطبيعة والثقافة في هذا التراث الغني. تعكس الجبال، على سبيل المثال، قوة وثبات الهوية الأمازيغية، حيث تُعتبر رمزًا للاستقرار والتجذّر في الأرض. الأنهار تعبر عن التجدد والحياة، مُشيرةً إلى أهمية المياه في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وهي تبرز كيف يُعتمد المجتمع الأمازيغي على الموارد الطبيعية للحفاظ على استمراريته. من ناحية أخرى، تُجسد الأشجار الحكمة والعلاقات الأسرية، مُعززةً الروابط الثقافية بين الأجيال، مما يُظهر الارتباط للإنسان بالطبيعة. الحيوانات، مثل الذئاب والغزلان، تعكس قيم الشجاعة والحرية، وتسلط الضوء على صفات تُعتبر أساسية في الثقافة الأمازيغية، فيما يُعد الماء عنصرًا أساسيًا للحياة، حيث يمثل الوفرة والارتباط الاجتماعي، مما يعكس الوعي البيئي الذي يتجلى في هذه الحكايات. من خلال تحليل هذه العناصر، يُظهر الجدول كيف تشكل الطبيعة جزءًا لا يتجزأ من الهوية الأمازيغية وتُسهم في تشكيل القيم الجماعية والمعرفة الثقافية.

6. التوصيات

في إطار دراسة الأدب الشفوي الأمازيغي من خلال المنهج السيميائي الإيكولوجي، يمكن تقديم عدد من التوصيات العلمية التي تساهم في تعزيز الفهم والبحث في هذا المجال. تتنوع هذه التوصيات لتشمل جوانب منهجية وعلمية تهدف إلى تطوير هذا النوع من الأدب، وجعل دراسته أكثر شمولية ودقة. ومن أبرز هذه التوصيات.

6.1. **توسيع نطاق الدراسات السيميائية الإيكولوجية**: من المهم تعزيز الدراسات التي تستخدم المنهج السيميائي الإيكولوجي لفهم العلاقة بين النصوص الشفوية والبيئة. يجب أن تشمل هذه الدراسات تحليل الرموز البيئية في الحكايات الأمازيغية وكيفية تأثيرها على

الذاكرة الثقافية والهوية المجتمعية. كما ينبغي تطوير أدوات تحليل سيميائية متخصصة تسهم في كشف العلاقات بين الطبيعة كما تم تصويرها في هذه النصوص.

6.2. **دعم البحث الأكاديمي بين التخصصات**: من الضروري تشجيع التعاون بين الباحثين في مجالات الأدب، الأنثروبولوجيا، السيميائية، وعلم البيئة لدراسة النصوص الشفوية الأمازيغية. هذا التداخل بين التخصصات سيمكن من بناء فهم متكامل حول كيف تعكس الحكايات الأمازيغية التفاعل بين الإنسان والبيئة التي يعيش فيها، وكيف يتم تجسيد هذه العلاقة من خلال الرموز والقصص.

6.3. **الاستثمار في التقنيات الحديثة للبحث والتوثيق**: ينبغي استخدام التقنيات الحديثة مثل قواعد البيانات الرقمية والمحفوظات السمعية البصرية لتوثيق الحكايات الشفوية الأمازيغية. يساعد ذلك على توفير الوصول المفتوح للباحثين والممارسين الثقافيين. كما يمكن استخدام تقنيات التحليل اللغوي والبرمجيات السيميائية لفحص بنية الحكايات وتقديمها بصيغة رقمية، مما يسهل دراستها من منظور متعدد الأبعاد.

6.4. **إدخال الأدب الشفوي في المناهج الدراسية**: يوصى بإدخال الأدب الشفوي الأمازيغي في المناهج الدراسية بشكل منتظم، سواء في المدارس أو الجامعات، هذا سيسهم في تعزيز الوعي الثقافي لدى الأجيال الجديدة، من خلال دمج الحكايات الشعبية الأمازيغية في إطار دراسات الأنثروبولوجيا الثقافية واللغة، يمكن تحفيز الطلبة على دراسة النصوص الشعبية من خلال منهجيات أكاديمية دقيقة وجديدة.

6.5. **التأكيد على البحث الميداني وجمع النصوص الشفوية** :يظل جمع الحكايات الشفوية جزءًا مهمًا من البحث الأكاديمي في الأدب الأمازيغي، من الضروري تكثيف البحوث الميدانية التي تهدف إلى تسجيل الحكايات في أماكنها الأصلية، سواء من خلال المقابلات مع رواة القصص أو عن طريق العمل مع المجتمعات المحلية لضمان الحفاظ على هذه الحكايات بأمان، يتم ذلك بالتعاون مع المؤسسات الثقافية والمراكز والمعاهد المحلية والجهوية التي يمكن أن تلعب دورًا مهمًا في هذا المجال.

6.6. **تقديم الفهم العميق للتنوع الثقافي والبيئي**: يجب أن تركز الدراسات المستقبلية على فهم التنوع البيئي الذي يشكل خلفية حكايات الأدب الشفوي الأمازيغي، وذلك من خلال إبراز كيف تسهم العوامل الطبيعية والجغرافية (مثل الجبال والوديان والغابات) في تشكيل السرد القصصي، كما يمكن للبحوث أن تكشف كيف تساهم هذه الحكايات في الحفاظ على استدامة المعارف البيئية والتقاليد الزراعية المتعلقة بالمجتمعات المحلية.

خاتمة

في ختام هذا البحث، يتضح أن استخدام المقاربة السيميائية والإيكولوجية يوفر فهمًا معمقًا لدينامية الحكاية الأمازيغية في منطقة الحوز، حيث تكشف التفاعلات بين الشخصيات والعناصر السردية والبيئة المحيطة عنها، ما يعكس رؤية أمازيغية للعالم تقوم على ارتباط وثيق مع الطبيعة وفكرة التحول المستمر. من خلال هذا التحليل، تبين أن الحكاية الأمازيغية ليست مجرد سرد جامد لماضٍ بل هي موروث شفهي مرن قادر على التكيف مع السياقات الثقافية والتاريخية المتغيرة، مما يساهم في تأكيد واستمرار الهوية الجماعية للإنسان الأمازيغي.

استنادًا إلى ذلك، فإن هذه الدراسة تدعو إلى مزيد من الاهتمام بالأدب الشفهي كجزء لا يتجزأ من التراث الثقافي اللامادي، يظهر التحليل الإيكولوجي للحكايات الأمازيغية إمكانيات غنية للبحث في العلاقات المعقدة بين الإنسان والطبيعة في المجتمعات التقليدية، مما يعزز فهمنا للكيفية التي تتشكل بها الثقافات المحلية. كما أن هذه الدراسة تمثل خطوة نحو استكشاف أعمق للأدب الشفهي كظاهرة ثقافية ديناميكية، تتسم بالمرونة وقادرة على مواكبة التغيرات التي يشهدها الزمن، وفي ضوء ذلك، تفتح هذه النتائج آفاقًا واسعة لدراسات مستقبلية يمكن أن تسلط الضوء على دور الأدب الشفهي في الحفاظ على الذاكرة الجماعية وتعزيز الهوية الثقافية الأمازيغية، خاصة في ظل التحديات الاجتماعية والبيئية التي تواجهها المجتمعات التقليدية في الوقت الراهن.

الهوامش:

[1]– حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، عدد 138، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1989، ص. 107.

[2]– يعد مصطلح "أگدال" أحد المفاهيم الجوهرية في الثقافة الأمازيغية المتعلق بإدارة الموارد الطبيعية، وهو يعبر عن أراضٍ جماعية محمية خصصت للرعي دون السماح بحرثها. يعكس هذا النظام البيئي والاجتماعي تقاليد أمازيغية متجددة، حيث يتم فتح الأگدال في تواريخ معينة من السنة، مثل 9 يونيو، ويغلق مع بداية التساقطات الثلجية الأولى، مما يساعد في ضمان استدامة الرعي وحماية الأراضي. وقد أشار الباحث م. شكير، في دراسته المتعلقة بالسياحة الجبلية، إلى أن هذا النظام يُمارس بشكل دوري في جبل سيروا، حيث يُغلق الأگدال مع تساقط الثلوج ويعاد فتحه في يونيو من السنة التالية. من جهة أخرى، أشار لوفيبور إلى استثناءات لهذا النظام، مثل فتح إگودال الأطلس الكبير الأوسط في تاريخ مختلف بسبب حالات الطقس غير المتوقعة. تنتشر هذه الممارسة في العديد من المناطق الأمازيغية، بما في ذلك الأطلس الكبير، الأطلس المتوسط، وسوس، كما وثقها العديد من الباحثين في مجال علم الإنسان والأنثروبولوجيا. وتعكس هذه الممارسة توازنًا بيئيًا واجتماعيًا، مما يضمن الاستدامة البيئية والتعاون بين مختلف الجماعات والفئات الاجتماعية في المجتمع الأمازيغي، حيث يشكل الأگدال جزءًا أساسيًا من تفاعل الإنسان مع بيئته الطبيعية.

[3] De Saussure, F. (1916). *Cours de Linguistique Générale*. Edited by Charles Bally and Albert Sechehaye, with collaboration of Albert Riedlinger. Paris: Payot.

[4] Greimas, A. J. (1983). Du Sens : Essais Sémiotiques. Paris: Éditions du Seuil.

[5] Rueckert, W. (1996). *Literature and Ecology: An Experiment in Ecocriticism*. Athens, GA: University of Georgia Press.

[6]– النشرة الإحصائية السنوية جهة مراكش تانسيفت الحوز، التقسيم الإداري لجهة مراكش تانسيفت الحوز، 2009، ص. 10.

[7]– مولاي لحسن الفارسي وعبد العزيز عبد الصادق، **الحوز: الهوية والتراب والفاعلون**، مؤلف جماعي، منشورات مركز تكامل للدراسات والأبحاث، دار العرفان للنشر، مطبعة قرطبة أكادير، 2022، ص. 8

[8]Bateson, G. (1972). Steps to an Ecology of Mind: Collected Essays in Anthropology, Psychiatry, Evolution, and Epistemology. New York: Ballantine Books.

[9] Propp, V. (1928). Morphology of the Folktale. Translated by Laurence Scott. Austin: University of Texas Press

[10]– تدور قصة لونجا حول فتاة اختطفت وهي طفلة من قبل غولة شريرة، فتمت تربيتها في غابة بعيدة بعيدًا عن عالمها. رغم قسوة الظروف، نمت لونجا لتصبح شابة جميلة وقوية. بعد سنوات، يكتشف الأمير ابن عمها، قصتها من خلال امرأة عجوز، تعرفه بالحقيقة المخبأة عن اختطافها. بناءً على هذه المعرفة، ينطلق الأمير في رحلة لإنقاذها

عند إنقاذ لونجا، يعودان معًا إلى قصر الملك، حيث يتحدان في مواجهة التحديات، تحفل القصة بعناصر من التحولات المادية والرمزية، حيث تؤثر البيئة المحيطة، من الغابة إلى الشخصيات، على مسار الأحداث. تعكس الحكاية تفاعل الإنسان مع بيئته الطبيعية والرمزية، وتُبرز القوة المتجددة للهوية والإنسانية، متمثلة في قصة إنقاذ تجمع بين الحب والتحول الاجتماعي.

[11]– في حكاية "الجدع السحري"، نجد الحطاب في بداية القصة يحاول قطع جدع خشبي في الغابة، ولكنه يتفاجأ عندما يبدأ الجدع بالكلام ويطلب منه التوقف قائلًا: "بالله عليك اتركني وابتعد، ماذا تريد مني؟". يفاجأ الحطاب بقدرة الجدع على الحديث، ولكن حاجته الملحة تدفعه للمطالبة ببعض الأخشاب ليبيعها ويشتري بها الطعام لحاجياته وزوجته اللذين يعانيان من الجوع. يوافق الجدع على طلبه، لكنه يقدمه له في شكل أدوات سحرية، كأوعية أو أكواب تمنحه ما يحتاجه من طعام أو مال بمجرد استخدامها .

مع تكرار هذه الهدية السحرية، يجد الحطاب نفسه في حالة من الدهشة والارتباك، ولكن مع مرور الوقت، يبدأ في إدراك أن كل هذه الهدايا ليست بلا ثمن، وأنه عليه توخي الحذر في استخدام هذه القوى السحرية، حيث لا تكون العواقب دائمًا كما يتوقع. الحكاية، إذن، تحمل دروسًا حول الطموح، والعواقب المترتبة على استخدام القوى السحرية، وتستعرض فكرة التوازن بين الاحتياجات الإنسانية والآثار المترتبة على استخدام قوى غير طبيعية.

[12]– حكاية "الحطاب والطائر الذهبي" تروي قصة رجل طيب اكتشف طائرًا يبيض قطعًا من الذهب، مما جلب له الثراء. بدأ الرجل يبيع الذهب للتاجر اليهودي، وبذلك استطاع تأمين حياة مرفهة له ولأسرته. عندما سافر لأداء مناسك الحج، ترك خادمته تدير البيت وتلبية احتياجات العائلة. إلا أن الزوجة، التي أطمعها المال، أمرت الخادمة أن تصطحبها إلى التاجر لبيع قطع الذهب. استغل التاجر هذه الفرصة، وأغوى الزوجة ليتزوجها بعد أن سرق أموال الزوج. عند عودته،

اكتشف الحطاب الخيانة، فتوجه إلى الحاكم الذي أنصفه، واستعاد ماله وبيته، وعاقب الزوجة الخائنة والتاجر اليهودي. الحكاية تسلط الضوء على الطمع والخيانة وتؤكد على أهمية العدالة والوفاء في العلاقات.